

سُورِيَا : مِنْ كَمَالِ أَبُو دَيْبٍ

تبنى شعاراتها الجماهيرية .
ومن ذبول هذه الدعوة ، شيثان اود ان اشير اليهما . الاول ، هو ان فضيلة رسمي الثورة تكمن في بقائها بعيدة عن ان تسهم في تحديد البوتقة . والثاني ، وهو امر غريب ، هو ان اصحاب الدعوة كانوا اكثر الناس تشدقاً بالهزيمة والضياع والانسحاق الآلي و « موقف الانسان من الموت والآخرون وعبت الحياة » ، حتى عهد قريب .

ان نقول : ليس في سوريا ادياء ، قول فيه كثير مما يستغرب ، على وجهة مبرراته . لنقل اذاً : ليس في سوريا نتاج ادبي . والفقر في النتاج يشمل كل الوان الادب ، شعراً ، وقصة ، ومسرحاً ، ورواية .

ولن نلهم بالدراسات الاحصائية لنثبت انه ليس في سوريا شعر . فما ينشر في سوريا ، وهو نادر نادر ، وما ينشر خارج سوريا ، وهو مثيله في الندرة ، لا يعني ان في سوريا شعراً ، لاننا لسنا موظفين في دائرة الاحصاء . فما يهنا من الشعر في سوريا ، الاشارة الى العنصر الثقافي في شخصية الشاعر عندنا ، والى محميات الشعر وسلطانه .

قد يكون من القسوة ان نقول ان الشاعر عندنا ما يزال يؤمن بانه سليل وادي عبق ، وان هبيداً ، شيطانه الجني الازرق ، هو ملك الوحي الوحيد الذي يمكن ان يهبه شعراً جيداً . وما دمنا على ايماننا هذا فان الشعر عندنا سوف يظل ضمن دائرة الشعر الغنائي الذي يحدى به خلف آثار المعارك

تتجمع في سوريا خيوط كثيرة تجعلنا نسأل بأسى وتوقع : هل سنحن يوماً الى من يكتب لنا « ذوبان جليد » سورية ؟ هذا التوقع ينبع من احساسنا بان في سوريا « شيئاً ما » ، شيئاً اقرب الى ان يكون اصابع تمتد لتحاول رسم قناة جليدية معينة لادبنا . وتبرز بصمات هذه الاصابع في مقالات لادباء سوريين شباب يتبنون شعارات ادبية ملتزمة ، تجعلهم يقفون موقفاً عصيباً نزقاً مما يسمونه « ادب التشرد والهزيمة والموت » منصبين بهجوم عنيف على الادب الذي لا يتبنى الجماهير ومشكلاتها وشعاراتها واهدافها ، منطلقين من ان سوريا تعيش الآن مرحلة الثورة والبناء اللذين تصنعهما الجماهير ، فمن واجب الادب ان يتبنى « مرحلة » معينة ، يجري فيها مع الثورة والبناء . يقول احدهم : « اما حين نفسر انسانية المسرح على انها عرض لموقف الانسان من الموت او لموقفه من الآخرين ، او لموقفه من عبت الحياة ، فانتسا نكون قد قضينا بايدينا على المسرح الذي انشأناه . ان شروطنا الاجتماعية والثقافية تحكم علينا ان نبحت بحثاً جاداً عن كل مسرحية تبحت في ظاهرة من ظواهر حياتنا وتعالجها ، كما ان هذه الشروط نفسها تقضي بالابتعاد عن المشكلات المجردة او عن الالاعيب الفارغة من المعنى » .

ترسم هذه الفقرة ابعاد المرحلة المتنبهة ، مرحلة تعتبر « موقف الانسان من الموت والآخرين وعبت الحياة » الالاعيب فارغة من المعنى . وهي بذلك تؤكد انها لا تفهم تبني الثورة الا عن طريق

بالاهتمامات السياسية وجود نوع من التفكير المثقف سياسياً ، وانما اعني الفوغائية السياسية ذات الابعاد الضحلة المستنقعية . ومن هنا قد تكون مهمة وزارة الثقافة بالدرجة الاولى محاولة خلق قارئ واع ذي تربة متفتحة للفكر الانساني . الا ان سوريا تقدم قارئاً آخر : هو القارئ المثقف ، الذي عمق اتصاله بالآداب العالمية ، ومثل هذا القارئ بعيد عن الادب المحلي بعد القارئ الاول عنه . ذلك انه يرى في الادب العالمي مجالاً واسعاً لاستكناه النفس البشرية . فهو يشغل وقته ونشاطاته كلها ، بثروته وفهمه العميق للانسان وغناه الفكري والتكنيكي ، مما يجعله بعيداً عن تتبع الانتاج المحلي ، بنوع من التعالي عليه ، مثيراً ضده معركة قاسية متهماً اياه بالضحالة والسطحية والفراغ والجذب الفكري . ولعل في تتبع الآثار الادبية المقروءة في سوريا ، خلال السنوات العشر الماضية ما يمكن ان يلقي ضوءاً على تطور المفاهيم الفكرية . فبينما كان الادب الجماهيري الحماسي (سليمان العيسى مثلاً) يحتل المرتبة الاولى ، خلال فترة الاحداث السياسية الزاخرة منذ ٥٨ - ٦١ ، وبينما كان نزار قباني خلال الفترة التي سبقت ، منذ ٥٤ - ٥٧ ، الشاعر المقرؤ ، اصبح الامر الآن على قدر من الاهتزاز . فالعيسى والقباني لم يعودا اليوم يثيران ما اثاراه ، في الوقت الذي لم يولد فيه شاعر يستقطب القراء خلال فترة ٦٠ - ٦٤ ، هؤلاء القراء الذين يستقطبهم الشعر الحر في لبنان والعراق . والملاحظ خلال هذه الفترة الانصراف لدى القارئ العادي عن الادب جملة ، والانصراف لدى القارئ المثقف الى الادب الغربي ، وطغيان الفكر الوجودي طغياناً كاملاً . وبينما كانت سوريا خلال ٥٤ - ٥٨ تتبع ، قراءة وترجمة ، انتاج المدرسة الواقعية الاشتراكية ، بتأثير من سيطرة الشيوعيين على الحكم ، يبدو طغيان الفكر الوجودي على الادب خلال فترة ٦٠ - ٦٤ ، طغياناً تاماً . وتقرب مؤلفات سارتر وكلمو وده بوفوار من ان تكون

المعاطفية الغرامية لادباء مخفيين في حبيهم ، وقوافل الدانتيل والعطور الباريسية المهاجرة ، وتذورات الحلوات ، او خلف آثار الاحداث السياسية والمهرجانات الخطابية . واما ان في العالم شعراء يؤمنون بان الثقافة والتغلغل في فهم التراث الانساني والنفس البشرية و « موقف الانسان من الموت والآخرين وعبت الحياة » ، ما يمكن ان يقدم شعراً حقيقياً ، فذلك ما لا يفهمه ابناء عبقري سوريا . واما عن محميات الشعر ، فللحديث ، رغم الجانب المثير للسخرية فيه ، شجون . ففي سوريا « محمية » للشعر اسمها « لجنة الشعر » في المجلس الاعلى ، مهمتها ان يعقد اعضاؤها اجتماعات تتوالى منذ اربع سنوات حتى الآن بانتظام هو فضيلة الاعضاء الوحيدة . يتسامرون فيها ، ويتندرون . واذا ادت عملاً ، اعلنت عن مسابقة للشعراء الشباب الناشئين — كما فعلت حديثاً — لهم فيها جوائز ، يمكن ان يحسد سلفاً من يفوزون بها . او اقامت مهرجاناً للشعر ، يلقي فيه اعضاؤها قصائدهم على الناس ، بدل ان يلقيها على بعضهم البعض ، لتتوزع المصيبة على اعصاب عدد اكبر ، فيخفف تأثيرها . وما قلناه عن انعدام النتاج الشعري يتحقق في النتاج في القصة القصيرة والرواية والمسرحية ، بصورة تجعل الادب سمكة تطفو ، مقلوبة ، على سطح الماء .

ليس في سوريا كلها دار للنشر على مستوى دور النشر اللبنانية . وليس فيها صحف ادبية ومجلات تفسح صدرها للانتاج الادبي . وفي سوريا نوعان من القراء . القارئ الاول ، وهو النسبة العظمى الكاسحة ، ما يزال يبحث حتى الآن عن الادب الفارغ المسلي ، تماماً كالمشاهد السينمائي عندنا ، الذي يتتبع افلام ماشيست وهرقل وعضلات مارك فورست . ومشكلة هذا القارئ يمكن ان تلمس في ضحالة ثقافته وفي طغيان الاهتمامات السياسية لديه على الاهتمام بالفكر . ولا اعني

توجه الى المدارس المعاصرة شيء يدعو الى الاهتمام بمفاهيم الجمهور عندنا . من اجل محاولة فهم فنانينا واعمالهم وآرائهم اجريت حديثاً مع ثلاثة فنانين في معارضهم التي اقيمت في دمشق مؤخراً . وتركز الحديث في سؤالين : اولاً ، هل تحاول ان تقدم رؤية خاصة للعالم وفهماً ذاتياً يستند الى خلفية ثقافية وتجريبية معينة؟ وما هي حدود هذه الرؤية؟ ثانياً ، في اختيارك للاسلوب ، هل ينبع الشكل لديك من المضمون ، ام انك تلتزم اسلوباً واحداً تحاول ان تصهر فيه اي مضمون يعبر في عالمك الداخلي؟

قال نبيل المالح : وراء كل عمل انساني لا بد ان يقف معنى ما ، اي معنى . لكن هذا المعنى موجود ، وهو الذي يعطي لحياتنا وجودنا عناصر غائبة . والسلوك الانساني بمجرد ان يصبح فعلاً مجرداً يجعلنا نشعر بأنه لا معنى ولا هدف يقود الانسانية والانسان الى عوالم ومجاهل افضل واعق ... ولكن الانسان يسأل ملتفتاً حوله : اكان لكل ما منحته الانسانية معنى ؟ وهذا التساؤل بالذات قد يقودنا لان نفقد الثقة في اي معنى من المعاني ، ويدفعنا لان نشك في انسانيتنا وجدواها . فثلاثون الف سنة من الحضارة الانسانية بكل آلامها ودماها لم تستطع ان تعطينا شيئاً سوى الفوضى واللامعقول والمادية المحرقة التي تلسع جباهنا ... المعنى لا بد ان يكون في مكان ما . وعلى الاقل ، او بالاحري ، يجب ان يكون فينا نحن انفسنا . ان خيوط المأساة تتجمع فينا ، ونحن الذين نقطعها او ننسجها . والهروب ليس خلاصاً ، وانما الخلاص في مجابهة العالم وخلق عالم جديد . ويبدو ان هذا هو المعنى الذي اغنيه ، خلق عالم جديد يبدأ من ذواتنا .

في معرضي لوحات تحمل طابعاً عقلانياً ، ولوحات اخرى لا تحمل سوى الاحساس والتعبير عن الاحساس . اما اعمال ذات الطابع العقلاني ، فهي لوحاتي السريالية التي حاولت فيها ان انقل

محور اهتمامات الجيل .

ويطغى الاهتمام بالحركة المسرحية ، والرسم ، على كل النشاطات الاخرى . فقد قدمت حتى الآن مسرحيات عالية لدستوفسكي وتنسي وليمز وبرنولد بريخت وغوركي وسوام . الا ان ما يمننا ليس احصاء المسرحيات ، بل القضايا التي تثيرها الحركة المسرحية . وهذه القضايا تتركز في الانتاج المحلي في المسرح ، وفي الجمهور ، وفي محاولة اخضاع المسرح للمرحلية التي تحدثنا عنها سابقاً .

وتظل مشكلة الانتاج المحلي مشكلة الكاتب الفرد في رأينا . وما تحاول لجنة المسرح ان تفعله من تخصيص جوائز للمسرحيات المؤلفة ، ثم عمد الى تكليف كتاب معينين بكتابة مسرحيات ، لا يمكن ان يحل الازمة . فالمشكلة تتمثل في الانتاج الادبي كله ، لا المسرحي فقط ؛ في فقدان الكاتب الفرد ، فقدان الموهبة والثقافة . وفقدان الموهبة لا يمكن ان يعزى الى اسباب خارجة عن نطاق الفرد ، لتنسب الى عوامل بيئية صرف تحمل عن طريق التكليف الرسمي .

اما الجمهور فيمكن ان نلاحظ تزايد اهتمامه بالمسرح ، الا ان هذا الاهتمام يتجه في خط بياني يتضح من الاقبال على مسرحية وليمز « مجموعة الحيوانات الزجاجية » وندرة المشاهدين لمسرحية بريخت « القاعدة والاستثناء » ، رغم معالجتها مشكلة اقرب الى مشاكل « المرحلية » التي يطالب بها ادباؤنا . ويبدو ان جمهورنا ما يزال يبحث عن « الحادثة » ، عما هو غير عادي في شخصية البطل وعما هو خارق ومتفوق وشاذ . وتظل قضية المرحلية المطلوبة ، القضية الأكثر خطورة ، ويوضحها ما قدمناه سابقاً كما يوضحها الهجوم العنيف والالفاظ الزقة التي قولبت بها مسرحية تيرسوده مولينا « الحبول في القصر » .

قصة الفن في سوريا شائكة . ففي الاتهامات التي

اي عالم « الانا » هو الذي يحول المادة التاريخية الى مادة فنية . فانا ضد دخول التاريخ في الرؤيا ، لان التاريخ يحوي الفلسفة والادب والشعر . وهذه العناصر الثلاثة يجب ان تكون محتبئة وراء اللوحة لا على وجهها .

وقال كال محيي الدين حسين : ان رؤاي قبل كل شيء باطنية انفعالية انفرادية. تبدأ بمغفوية اكثر الاحيان وبنوع من التداعي اللاواعي اعتباراً من حادثة معينة تحمل شحنة عاطفية ما . فقد تولد اللوحة ، واقول تولد لانها لا ترى النور بشكلها الكامل الا بعد عملية اختيار قد تكون طويلة جداً . فهي تبقى مخفية وراء الادراك والحس الواعي حتى تستكمل عناصرها الفنية والعاطفية. ثم تظهر فجأة وبشكل انفجاري ملح. وقد يكون سبب ظهورها حادثاً عادياً او التفاتة طفيفة . وهذا كله تلميح على الفنان شخصية معينة تحمل نظرة خاصة للعالم تفرضها ظروف خاصة مر بها . وقد تظهر هذه الملامح الشخصية في التقنية الخاصة التي تميز اعمال الفنان ، وقد تتجلى بحبه لعدة اشياء يكررها في لوحاته .

اما في الشكل ، فهو يرتبط عندي ارتباطاً وثيقاً بالفكرة ، وكلما اشتد ارتباطه ازدادت قدرته على تحمل المشكلة . الا انني احكم انتقاء احياناً ، فقد افاضل واحذف حتى اشعر بالراحة . وقد تظهر امام تخيلتي اشكال منحرفة عن التكوين الحام السريالي فأرفضها فوراً ، وانتظر اشكالاً افضل تنسجم مع الفكرة ، وفكرة جديدة تنسجم مع العالم المنشود بناؤه . وقد يطول الانتظار ، لان البداية عندي هي دائماً الانفعال ، والانفعال المؤثر الموحى قليلاً ما يتكرر .

رؤى وافكاراً الى خطوط والوان وعوالم مدروسة دراسة كاملة . واما اللوحات الاخرى فان انجازها لا تسبقه اية معالجة عقلية ، والرؤى تنتقل كما هي الى الورق . وانا في محاولاتٍ الشعورية للرسم باحساسي لم ولن افكر في اللون او الخط . ان ذلك يحدث دون اي تدخل من عقلي الواعي، لذلك ارسـم بسرعة واللوحة التي لا اتمها في جلسة لا اتمها ابداً . واذا فقدت صلتي بها مجدث تلفوني او مقاطعة كلامية مثلاً ، انفصل عنها تماماً . وكل ما احاول ان اضيفه اليها اجدّه مفتعلاً وغير حقيقي.

وقال فاتح المدرس : نعم . رؤيا خاصة جداً يمتد منها خيط حرير يرتبط بالحلقة الوهمية التي تحدد المفهوم المعاصر للقيمة . خذ لوحة « سماء حرب » مثلاً : انها تمثل مساحات لونية وخطوطاً ، تمثل طفلين مذعورين استندا الى جدار ينظران الى سماء حرب . هذا هو الموضوع . ولكن هل قوة الموضوع لها علاقة بمجودة الانجاز الفني؟ اعني بالانجاز الفني في الرسم القيمة المعاصرة المتجهة نحو التجريد . لا ، فالرسم شيء والفلسفة شيء آخر . ان الفكرة المعالجة في لوحة ساعة الانجاز تفقد كل قيمة فلسفية ويتجه اللون والخط نحو عالمي اللون والخط فقط . فكل هذا الجسد اللوني والهيكلي الخطي هما حالة الرؤيا في الرسم ، اما الفكرة فتسقط . لان عالم الفكرة يأتي ثانياً لا اولاً . والمضمون عندي ليس بمضمون الفكرة بل مضمون الشكل (من حيث تركيبه المساحي اللوني والهيكلي الخطي) . اما البقية فبحدود اللون والخط والمساحة فقط ، ليس من حيث الشكل الادبي او الفلسفي او الشعري . اعني انني افصل الفلسفة والادب والشعر عن عالم الرسم . فالرسم للرسم فحسب . اما اسلوبي فهو تعبيرى يهدف الى التجريد ، وان عالمي الداخلي